٤ ـ دانتي أليجييري

والكوميديا الإلهية

وأبو العلاء المعري ورسالة الغفران

فردوس دانتي

في آخر الطهر أن دانتي تحسى من فُراتِ (ليث) جرعة نزعت ما في نفسه من أدران هذه الدنيا التي لا يجوز لمن ينطوي عليها أن يجوس خلال الفردوس ... وهي جرعة إلهية جعلت من جسم دانتي هُلاماً شفافاً وهيُولى نقية استطاع بعدها أن يرقى في السماء، ويعرج في الأثير، في إثر بياتريس (١). وأخذ طيف بياتريس يصَّعَّد في الأديم الأزرق الشرب بنضارة البنفسج، وأخذ طيف دانتي يصَّعَّد في إثرها بقدرة الإله العلي، حتى كانا في السماء الأولى، والفتاة الطاهرة في خلال ذلك تحدثه وتتلطف به، وترفه عنه بعض ما كان يضيق به صدره من وساوس. (٢) إلى أن دخلا تلك الجنينةَ الصغيرة التي أرضها من فضة وأنهارها من لجين ... جنينة القمر! حيث تشرح بياتريس لحبيبها المشدوه سبب تلك الظلال التي تعلو وجه السيار الصغير، والتي يراها الناس من سكان الأرض في هذه الحياة الدنيا. (٣) وفي رحاب القمر، يلقى دانتي الفتاة بيكاردا دوناتي التي تأخذ معه في حديث طويل، فتخبره أن هذا القمر هو جنة الساكين الذين نذروا حياتهم للخير في الدار الأولى، وعاشوا عيشة كلها تقوى وكلها بر وورع، ولكنهم، واأسفاه، لأمور ما، لم يوفوا بكل ما نذروا من فعل الخيرات، ثم تلفته إلى روح الأمبراطورة كوستانزا، تمرح في بعض جنبات القمر، وتلعب. (٤) وتنطلق بياتريس، وفي إثرها دانتي، وكلما عمى أمر عليه جلته له صاحبته، (٥) حتى يكونا بعد رحلة سماوية جميلة، في كوكب عطارد الذي يقع في السماء الثانية؛ وثمة، يلقيان ثلة من أرواح البررة الأطهار ويتبرع أحدهم فيبدي استعداده للاجابة عن أي سؤال يلقى عليه من أمور الماضي أو الحاضر أو المستقبل. (٦) ثم يعرف دانتي أن الشخص الذي عرض عليه هذا العرض إن هو إلا الأمبراطور العظيم جوستنيان الذي يذكر للشاعر من أمور الحياة الأولى، فيما يتعلق بشخصه الأمبراطوري، الشيء الكثير، ويشرع بعد ذلك يحدثه عن عظمة الرومان القدماء، ويعدد له فتوحهم وخوالد غزواتهم التي دوخوا بها أقاصي الأرض في ظلال بنودهم التي تحمل رمز رومة الخالد ... النسر ... ويذكر له أن روح روميو فلنيف تمرح في رياض عطارد ذات الزهر والأفواف. (٧) وتتفرق الأرواح عن دانتي، وينطلق جوستنيان غير مستأذن، ولكن شكوكاً كثيرة تثيرها كلمات الأمبراطور في نفس الشاعر من أجل الفداء البشري، فتشرع بياتريس تفشها واحداً فواحداً من نفس خليلها؛ (٨) ويعرجان إلى السماء الثالثة حيث الكوكب الجميل المتلألئ، فينوس (الزهرة)، وحيث يلقى الشاعر صديقه العزيز الكريم شارل مارتل الذي يحدث دانتي عن مملكته الواسعة الترامية الأطراف التي كان يسيطر عليها في الدار الأولى، ثم يتغير الحديث فجأة إلى الأبناء والأحفاد والسبب في اختلاف فطرتهم وطبائعهم عن طبائع آبائهم (٩) ويعضيان فيلقيان روح ابنة الهوى كيونيزا Cunizza (١) التي طالما فتنت قلوباً وعذبت بحبها أفئدة، والتي كانت تملأ الأرض فسوقاً وتغمر الدائن دعارة، ثم تابت وثابت، وندمت على ما قدمت، وأقبلت على فعل الخيرات؛ وحدث أن ورثت عن أبيها عدداً من الأرقاء فمنحتهم حريتهم، وبذلك غفر لها وتُقُبِّل توبتها، وهي في هذا المكان من فينوس لا تطمع في درجة أعلى؛ ويعضيان فيلقيان فولكو الشاعر المنشد فيحدثهم عن الزانية، خضراء الدمن، رحاب Rabab التي تابت هي الأخرى فغفر لها، وسكنت هذا الكوكب مع كيونيزا. وبعد أن ينتقد الشاعر فولكو بابا روما وينعى عليه تغاضيه عن استرجاع الأراضي المقدسة يعود فيتنبأ عن بعض الكوارث التي تتربص به طي الغيب، والتي ستسحق سلطته. (١٠) ويعرجان صعداً فيكونان في الشمس (!!) التي يعتبرها دانتي السماء الرابعة، وما يكادان يبلغانها حتى تحدق بهم ثلة من اثني عشر روحاً، ويتقدم أحدهم (توماس أكويناس(٢)) فيقدم أصحابه إلى دانتي ويخبره عن

(١) كان الشاعر الايطالي الكبير سوردللو أحد عشاقها وضحية معذبة من ضحاياها العديدين

(٢) شاعر من العصور الوسطى وأحد أعلام النهضة

درجاتهم (١١) ثم يتوسع أكويناس فى سرد حياة القديس فرنسيس ، الراموز الملائكى للحب ، ويلحظ أثارة من الريب تنشب فى فؤاد دانتى فيحدثه عنها ويجلو له الحق الذى يمترى فيه . (١٢) وتقبل ثلة أخرى من اثنى عشر تقياً فيتقدم أحدهم (القديس دومينيك) ويسرد أسماء أصحابه لدانتى . والقديس دومينيك هذا هو الراموز الملائكى للحكمة . (١٣) ويعود توماس أكويناس إلى حديثه مع دانتى ، وكلما لمح أثارة من الشك فى نفسه نبأه بها وجلاها له ، وحذره من الوسواس وحذره من أن يحكم بقلبه أو عقله على شىء دون أن يدرسه ليصل الى حقيقته . (١٤) ويبرز سليمان النبي من وسط الجماعة فيحدث دانتى عما يكون من مظهر الصالحين من عباد الله بعد البعث . ثم يعرجان الى السماء الخامسة التى هى مارس (المريخ) فى زعم دانتى ، ويريان ثمة أرواح الشهداء الذين حاربوا تحت رايات الصليب الخفاقة ، ولم يخشوا فى سبيل ربهم أن يجرعوا غصص الموت ... أولئك قد بدت عليهم سيماء الصليب ، وما تفتأ أرواحهم ترتل فى الفردوس أناشيد الخلود المرنة تطريباً لعباد الله السعداء . (١٥) ويبرز من بين الملأ سلف دانتى الصالح كاشيا جَيِّدا ، ويأخذ مكانه تحت الصليب ، ثم يتعرف الى دانتى الذى يفرح به ويهش للقائه ، ويأخذ فى حديث طويل عن ماضى فلورنسا السعيد الحافل وينعى على الخلف ما فرطوا فى جانب الوطن وما أوضعوا فى الفتنة ، ومرجوا فى الضلالة (١٦) ويخبر دانتى عن يوم ميلاده ، ويصف له مجد فلورنسا ومدى حدودها فى أيامه والأسر العريقة التى كانت تزدان بها تلك المدينة الشقية التى انحطت أرومتها وفسد طيب محتدها واتضعت أقدار القروم من أهلها الأعلين (١٧) ويرسل كاشيا جيدا حبل القول فيتنبأ لدانتى عما يتربص به من غدرات الزمان والنفى من حظيرة الوطن حين يعود أدراجه إلى الحياة الدنيا . ثم ينتحى ناحية ويتناول طرساً من أوراق الجنة ، وقلما من قصباتها ويشرع فى كتابة شعر طويل رقيق . (١٨) ويمضيان فيريان طوائف شتى من أرواح المحاربين الشهداء الذين خاضوا معامع الحروب الصليبية يمرحون فى أفياء الجنات الوارفة التى يهتز عنها المريخ ؛ ثم ترسل بياتريس عينيها العميقتين فى لازورد السماء ، وتشير الى دانتى فيعرجان فى الأثير الى جوبيتر (المشترى) الذى هو السماء السادسة فى حساب شاعر الكوميدية وهناك يلقيان جموعاً اخرة من أرواح الصالحين الذين حكموا بين الناس بالعدل ووزنوا بالقسطاط المستقيم . ويكون هؤلاء أنّى توجهوا مكونين دائماً شكل نسر (رمز رومة القديمة) . ثم ينتهى الفصل بحملة شعواء على رجال الأكليروس وما اشتهروا به من الطمع وحب الذات والتكالب على حطام الدنيا وجمع الأموال بالحق وبغير الحق ؛ ويخص دانتى رجال البابا بالقدح الأكبر من هذه الحملة (١٩) ويتكلم النسر الذى تكوّنه هذه الجماعة بلسان واحد مبين ، فيقص على دانتى السبب الذى من أجله اتُّخذ رمزاً لعظمة الرومان . ثم يتكلم دانتى كلام المتشكك عما إذا كان محتملاً أن (يَخْلُصَ) [1] الرجل من الناس من عذاب الجحيم من غير أن يكون مؤمناً بالمسيح مصدقاً به ، فينبرى النسر للاجابة ويزيل الريب من نفس دانتى ويخاطبه فى شأن أصحاب السيطرة والحكام من المسيحيين وما سيؤدونه من الحساب الثقيل يوم القيامة . (٢٠) وكذلك يمتدح النسر عدل بعض الملوك وورعهم ، ويكوّن هؤلاء عين [2] النسر نفسه ، وفى إنسان عين النسر يقف النبي داود ، وفى الدائرة المحيطة به يقف تراجان وحزقيال وقسطنطين ووليم الثانى ملك صقلية ورفيوس ... ثم يوضح له كيف وصلت أرواح هؤلاء إلى الفردوس وهم لم يؤمنوا قط بالمسيح « ولكنهم عملوا بما جاء قبله من لدن الرب فاستأهلوا دار المثابة » . (٢١) ويسموان فى السموات العلى ، فيبلغان السماء السابعة التى هى سَاتِرْن (زُحَل) حيث يسمق منه سلم ذاهب فى الجو لا تدرك آخره عينا دانتى . وفى زحل يلقيان أمماً من أرواح الصالحين الذين قضوا حياتهم الأولى فى اعتزال وصوفية وتأمل . ثم يدنو منهما روح كريم نقى ، هو روح خليل المسيح الورع التقى بيرو داميانو (أحد كرادلة الكنيسة ومصلحيها العظماء) فيجيب على أسئلة كثيرة يوجهها إليه دانتى ، ثم يقدح فى ذمم القسس الأخساء ورعاة الكنيسة الذين فتنتهم الدنيا بزخرفها وصرفتهم عن وظائفهم الدينية وشغلتهم عن هداية الناس . (٢٢) ويريان جموعاً أخرى من الأتقياء المتفكرين ومن بينهم القديس الأطهر بندكت Benedict

(١) المقصود من الكلمة معناها المسيحى

(٢) خيال سقيم طبعاً

الذى يذكر لدانتى أسماء أصحابه الراضين فى ظلال الرب فى فراديس زحل . ثم يستطرد فيذكر أن المسوح والزنارات وسائر ألبسة القساوسة ورجال الكنيسة لا قيمة لها ما لم تزنها مسوح من الخلق الكريم والتقى والنقاء . ويزيد فيقدح فى خراب ذمم الرهبان والأحبار وفساد ضمائرهم . وينطلق الألفان فيعرجان إلى السماء الثامنة ، سماء الأنجم الثابتة ، التى يدخلانها من الهَنْمَة . ومن ثمة يرجع دانتى بصره كرتين إلى الوراء فتبدهه المسافة الهائلة بينه وبين الأرض (٢٣) وهناك ، يرى المسيح (صلوات الله عليه) يأخذ بناصر الكنيسة ويشد أزرها ، ومن حوله الملائك الأطهار يسبحون لله ويلهجون بحمده . ثم يسمو السيد المسيح فيعرج فى السماء العليا وفى أثره أمه البتول مريم ، شاخصة اليها أبصار الجميع . (٢٤) ويتقدم القديس بطرس من دانتى فيسأله بضعة أسئلة يعرف بها إخلاصه ونقاء إيمانه ، ويجيب دانتى فيقنع القديس بالكلم الطيب والبيان البرىء (٢٥) ويتقدم القديس جيمس فيسائل دانتى عن الأمل ، ثم يبدو القديس يوحنا فيدهش دانتى لرؤيته ، ولكن القديس يمحو دهشه ويذكر له أنه عرج إلى السماء بروحه فقط ، ولم يعرج اليها بروحه وجسمه إلا المسيح وأمه مريم . (٢٦) ثم يسائله القديس عن الفضيلة فيجيب دانتى إجابات ناعسة . وينظر الشاعر فيشدهه أن يرى أبانا آدم ، فيتأدب ويتقدم اليه ، فيخبره أبو البشر عن كيفية خلقه وإقامته فى الفردوس ومدى إقامته فيه ، ثم ما تلا ذلك من خروجه منه وسببه ، ثم عوده اليه ، ويتظرف فيذكر له اسم اللسان الذى كان يتكلم به فى بدء الخليقة[1] ويعود القديس بطرس فيصل حديثه ، ويحمل على خلفه حملة شعواء لما انصفوا به من جشع ذهب برؤاء الأبوية الرسولية ، وينسى دانتى فيحدق نظره فى بياتريس غافلاً عما أوصته به فى أول الرحلة إلى الفردوس فتأمره أن يغضى .... فيفعل .... ثم يعرجان إلى السماء التاسعة حيث يطلعان على الحق الجلى من أمر هذا الخلق ، وحيث يشهدان فطرة الطبيعة فى جماع فضائلها ، وتسخط بياتريس على الانسان « ما أكفره ... يكون أمله الخير بيّنا والشر بيّنا ، ثم يدلف بعلمه فى طريق الشر ، مضحياً هذا الفردوس من أجل هنات هينات » (٢٨) ويؤذن لدانتى فيطلع إلى الوجود الأسمى ، ثم يطلع إلى الخورس الملائكى يرسل ألحانه الكنائسية الرائعة فى قبة الفردوس . (٢٩) وتنظر بياتريس فى مرآة الحق الأسمى (هكذا) فترى أن بضعة شكوك قد نفذت إلى فؤاد دانتى وظلت ثمة تساوره ، فتضاحكه ، ثم تفجأه بما يفكر فيه ، وتجلوله ما نفذ إلى قلبه من ذلك الوسواس ، وتذهب فى القول مذاهب شتى ، وتنتهى إلى ذم رجال الدين الذين شغلتهم الدنيا عن نصرة الانجيل . (٣٠) ثم يدخلان سماء المنتهى[1] ذات السناء الساطع والضوء اللامع ، ويكاد نظره ينبهر لولا أن تدركه بياتريس ... ويرى إلى نهر الضوء المتألق فينظر كيف ينتصر الملائك على شرور العالم وكيف ينتصر معهم المؤمنون المباركون . (٣١) ويلتفت الشاعر فلا يجد فتاته إلى جانبه ، بل يجد مكانها رجلا طاعناً فى السن إذا تفرس فيه عرف فيه القديس برنارد الذى يخبره أن بياتريس قد عادت إلى عرشها ثم يريه بركات العذراء مريم عليها السلام (٣٢) ثم يريه كذلك أرواح القديسين الذين وردت أسماؤهم فى العهدين (الجديد والقديم) (٣٣) ثم يدلف القديس برنارد نحو البتول الكريمة فيرجوها أن تمنح بركتها لدانتى وتسبغ عليه من نورانيتها حتى يستطيع التأمل فى عظمة الله . وتهب له مريم ما سأل ، فينكشف الغطاء ويلقى دانتى ربه فيصلى له ويضرع إليه أن يهبه إشراقة يضفيها على كتاباته وأشعاره . ثم يؤذن له فيخطف لمحة من الثالوث المبارك العظيم الذى يتحد فيه الله القدير (جل وتعالى) بالانسان

* * *

ويفيق دانتى ، وتنتهى رؤياه العجيبة . وسنرى من الكلمات التالية كيف اقتبس الشاعر صور القرآن الكريم وأخيلة الانجيل الجميلة ، وطريقة فرجيل فى الجزء السادس من الأنييد ، فتم له هذا العمل الفريد

(لها بقية) د . غ

(١) نختبر هذا الفصل رداً على مقالات للسلمين فى آدم وسنعرض لذلك فى حينه . ونختبره أيضاً الوحى للشاعر جون ملتون بكتابة قصيدته (الفردوس المفقود)

(١) تلفت القارىء إلى سورة النجم من سور القرآن الكريم

مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٥٠ قرشاً مصرياً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثانية (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا اجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثالثة (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
وأجرة البريد عن كل مجلد فى الخارج ١٥ قرشاً